إبداع المتنبى

ظواهر فنية ونفسية فى نص من سينياته

بقلم

الدكتور / صالح حسن اليَظَمى

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

إبداعُ المتنبيِّ
ظواهرُ فنيَّةٌ ونفسيَّةٌ في نَصٍّ من سَيْفيَّاتِه

بقلم : الدكتور صالح حسن اليَظّى

كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

لقد طوف أبو الطيب بعد خروجه من السجن بين ممدوحيه من الأعيان والسراة ، وقبل اتصاله بسيف الدولة اتصل بأمير عربى آخر هو بدر بن عمّار قائد الجيش فى طبريا . وليس من شك فى أن فروسيته وعروبته ، وليس جداه فقط ، كانتا مما جذب أبا الطيب إلى ساحته ، فمدحه خلال سنتين أو ثلاث بست قصائد ثم اضطر إلى مغادرته إذ سعى بينهما الواشون والكارهون . ولابد لنا من أن نرد شنآن هؤلاء وحقدهم على أبى الطيب – فى قدر كبير منه – إلى ما اتسم به الشاعر من صلف وشعور متعاظم بالنفس ، وبعد مرحلة أخرى من التنقل والترحال بين الممدوحين اتصل أبو الطيب بوالى أنطاكية من قبل سيف الدولة وهو أبو العشائر الحمدانى ، ومن ثم تهيأت له فرصة عمره فاتصل بسيف الدولة على بن حمدان أمير حلب وفارسها العربى المناضل ضد الروم وحامى الثغور الإسلامية ، وكان إلى ذلك محبا للثقافة راعيا للعلماء والشعراء ، وقد اجتمع إلى بلاطه جلّة من هؤلاء جميعا ، منهم العالم اللغوى ابن خالويه معلم الأمير وأبو الفرج البغاء وأبو عبد الله الخليع والوأواء الدمشقى وأبو بكر وأبو عثمان الخالديان وأبو الطيب اللغوى والسرى الرفاء وأبو على الفارس والصنوبرى والفارابى وأبو الفرج الأصفهانى فضلا عن أبى فراس الحمدانى ابن عم الأمير وختنه وأبي الطيب المتنبى نفسه ، ويبدو أن المتنبى أحب سيف الدولة حبا صادقا إذ جسّد لديه بعروبته وفروسيته واتساع أفق ثقافته صورة مثلى للحاكم ، ربما كان فى دفعات طموحه إلى

التَّسيّد والحكم تواقا إلي أن يكونها ، ولقد نال الشاعر بدوره من مودة سيف الدولة ورعايته وعطائه قدرا هائلا متميزا ، فإذا أضفنا إلى ذلك تعاليه المتعاظم وصلفه المعهود رأينا من الطبيعي أن يتراكم لدى الآخرين شعور تجاهه بالعداء والحقد والنفور ، ومن ثم يكون من رکدهم إفساد مابينه وبين الأمير ، وربما ساعد علي ذلك مالا نستبعده من جنوح المتنبى تحت وطأة طموحه العنيف للحكم . إلى تجاوز مكانته باعتباره شاعرا ، إلي أن يكون مسهما ولو بقدر هامشيّ فى شئون الحكم ، فتغير عليه سيف وأسلم أذنيه وقلبه للطاعنين فى أبى الطيب ومنهم أبو فراس ، وقد نقل صاحب الصبح المنبي عن ابن الدهان قوله " قال أبو فراس لسيف الدولة : إن هذا المتسمىّ كثيرُ الإدلال عليك ، وأنت تعطيه في كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتى دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره " (١) .

تغير إذن سيف الدولة علي شاعره الأثير بعد تسع سنوات هى أزهى سنى حياة المتنبى وأحفلها بمجد الفن والمال والشعور بتحقيق الذات جميعا ، وأدرك أنه لا بقاء له في حلب ولا مفر من الرحيل ، وفى جمع حاشد ببلاط سيف الدولة على رأسه الأمير ويضم حاشيته ومنهم خصوم أبى الطيب والناقمون عليه ، أنشد ميميته الشهيرة التى هى وثيقة فنية بالغة الدلالة علي خصائص الشاعر النفسية والفنية .

استهل أبو الطيب قافيته استهلالا بارقا مستجيبا فيه لجواذبه ودوافعه الكامنة ، إنه يستغيث مما ينوء به من وجد أورثه نحول الجسد وتصدع النفس ، وإن هذا الحبيب المحبوب – سيف الدولة – لبعيد عنه غير عابيء بحبه المتوقد الذى يزيده الإخفاء والترفع عن المجاهرة أُوارا وتلهّباً فيغدو سكينا

يفري الجسد فريا على حين قد أغرق مدّعو حب الأمير في الإعلان عن بلطلهم والترويج لشرورهم :

واحرَّ قلبـــــاه ممّن قلبُه شَبِمُ ومن بجسمي وحالي عنده سقمُ

مالي أُكتّم حبًّا قد برى جسدي وتَدّعي حبَّ سَيْفِ الدولةِ الأممُ (٢)

وأبو الطيب هنا ابن نفسه من غير شك ، فقد حوّل العلاقة بين الشاعر المادح والأمير الممدوح إلي علاقة حب خالص يطرأ عليها الوصل والهجر ويترتب عليها نحول الجسد واعتلال النفس ، ويضنّ بها أحد طرفيها في مرحلة من مراحلها على علانية البوح ، وهكذا انتهى المتنبى في الفن إلي مساواة هامته بهامة أميره بعد أن اشترط عليه فى الواقع ألا ينشده واقفا وألا يقبّل الأرض بين يديه مستثنىً بذلك من أعراف سارية على شعراء بلاط الأمير . إنها شخصية أبى الطيب المتأبّية المتعاظمة ، بل الجانحة إلي الصلف المغرور في أحيان غير قليلة .

وقد استغاث المتنبي متولها في مطلع القصيدة وتوجع من تأبي الحبيب مما أورثه نحولا في الجسد وتفزّعا في الروح ، ويلفتنا أنه عبّر عن النفس أو الروح بكلمة ذات دلالة خاصة فى سياقها وهى كلمة " الحال" وذلك كله غير بعيد عن مجال التصوف ، بل إن الاستغاثات المتوجعة والتعبير عن معاناة النفس بالحال ، أشبه مايكون بحالة من حالات الوجد الصوفىّ التى يكابدها العشاق المريدون قبل ماقد يوهب لهم من الكشف والفتح والنوال ، وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلي ما نبه إليه المستشرق ماسينيون من اتصال الشاعر بالمتصوف هارون بن على الأوراجى الذى كان له شأن في قضية الحلاج ، وقد مدحه المتنبى مما يوحى بأنه أخذ عنه مبادىء التصوف (٣) ،

وفي موضع آخر يرد علي ماسينيون منحاه في القول بقرمطية المتنبي وتشيعه وإن كان قد تأثر بهما في شعره ألوانا من التأثر ، ويذهب إلي أن أثر التصوف في شعره كان أوسع نيتول : " وإن من يقرأ في ديوانه لَيَجِدُ هذا التصرف يستوعب حيزا واسعا من خواطره وأفكاره . واقرأ هذه الأبيات التي يقولها في بعض ممدوحيه :

ذا السراجُ المنيرُ ، هذا النقيُّ الـ ... جَيْب ، هذا بقيَّةُ الأبْدالِ

فخذا ماءَ رجْلِه وانْضَحَا في الـ ... مُدْنِ نأمنْ بوائقَ الزالزالِ

وامْسحَا ثوبَهُ البَقيرَ على دا ... ئكما تُشْفَيَا من الأعْلاَلِ

فإنك تحس بأنك إزاء شاعر صوفي يصوغ معانيه صياغة صوفية ، أليس يمدح صاحبه كما يمدح الصوفية أقطابهم فيجعله بقية الأبدال (٤) ويورد الدكتور شوقي ضيف غير قليل من شواهد روح التصوف في شعر أبي الطيب وخاصة همزيته التي مدح بها الأوراجي (٥) وهو متابع لمنحي الدكتور طه حسين في هذا الخصوص وعلي الرغم من أننا – فضلا عن شواهد الدكتور ضيف – قد ألمحنا إلى بعض جو التصوف في أول أبيات القصيدة وثانيها ، فإن الأمر عندنا لا يعدو أن يكون لدي المتنبى صنعة شاعر لا سلوك متصوف حقيقي ، ونحسب أن السيرة العملية لأبي الطيب وكلفه العنيف بالجاه والمال والسلطان . ناهيك عن عجبه المسرف بنفسه ، تباعد كلها بينه وبين سلوكيات التصوف لدى المتصفين به .

إن حالة الوجد الصوفي ومعاناة الجسد والروح والضّن بذكر حب المحبوب ليست إذن إلا أجزاء من صنعة أبى الطيب وليست تصوفا فعليا ،

ونراه يراكم من عناصر تلك الصنعة بما يدل عليها أبلغ دلالة . إنه يحقق التناسق بين امتداد صوت المستغيث في قوله : (واحَرِ) وبين القيمة الصوتية لكلمة (قلبي) بأن يقلب الياء فيها ألفا ، فتصبح (قلباه) بعد أن يتبع الألف هاء السكت محركا إياها فتضفي علي اندفاع الصوت في (قلباه) صوتا متأوها يحكي التوجع والأنين ، ونراه يطابق بين كلمتي (حَرَّ) و (شَبِم) ويقابل بين (واحَر قلباه) وبين (قلبه شبم) ، ثم يطابق في عجز البيت بين (الجسم) (والحال) ، ثم نراه في البيت الثاني يستنكر من نفسه ما يلتزم به من الترفع بذلك الحب عن أن تلوكه الألسن باستخدام أداة الاستفهام (ما) ، ثم يقابل بين ترفعه بهذا الحب الحقيقي عن الانكشاف وبين ترخُّصِ خصومه بما يدّعون باطلا من حب سيف الدولة ، ولا يفوتنا أن نلحظ كيف وضع أبو الطيب نفسه في كفة ، ووضع خصومه الذين عبر عن كثرتهم الكاثرة بكلمة (الأمم) في كفة أخرى ، وهو حين أثبت لنفسه معاناة الحب المكتم وعبر عن ذلك بالصورتين الاستعاريتين في قوله (أُكتِّم حبًّا) و (قد برَىَ جَسدى) وبتضعيف الفعل للمبالغة في (أكتّم) لم يثبت لخصومه المتطاولين غير سوءات الترخص والادعاء في عَجُز البيت .

ولا يلبث في البيت الثالث أن يشارط علي خصومه شرط المشكّك في حبهم لسيف الدولة ، ويتمنى في جواب الشرط أن يكون نصيب كلٌّ من مودة الأمير وعطفه وحبائه بقدر حبه إيّاه ، وإنه لواثق من أنه سيكون صاحب النصيب الأوفي والأسنى، بل يكاد سياق البيت أن يدل على أنه سيكون الصاحب المتفرد بالأمير ، فليس الآخرون غيرَ متخرّصين بالحب المدَّعَى .

ومازال أبو الطيب يلح على قاموسه الخاص بتصوير العلاقة بالأمير علاقة حب ، لا علاقة نفع عامة أو خاصة ، فيكرر كلمة

(الحب) مرتين ، ويعبر بالمجاز المرسل في (غرته) عن بهاء طلعة المحبوب في عين المحب الوامق :

إن كـــانَ يجـــمُعنا حبٌّ لِغُرَّتِه فليت أنَّا بقدرِ الحبِّ نقْتسِمُ(٦)

وفي البيتين التاليين يعمد أبو الطيب إلى مدح أميره بالخلق الرفيع سلما وحربا أي في حالى حياته كلها :

قد زرتُه وسـيوفُ الهندِ مُغمدَةٌ وقد نظرتُ إليـــه والسيـــوفُ دَمُ

فكان أحسـنَ خلقِ اللـــه كُلِّهِمِ وكان أحسنَ ما في الأحسنِ الشيمُ(٧)

إن أبا الطيب للشاعرُ الذى استوت أداته وامتلك ناصية فنه . وقدَرَ على لغة شعرية مواتية ، فصور المعانى تصويرا دون أن يقررها تقريرا ، فزياراته التى هي في السياق النفسي زيارات ولقاءات بين متلازمين ، قد تمت سلما . والصورة الكنائية هنا هى التي أدت ، لقد كانت السيوف القواطع فى أغمادها ، والزيارات المتكررة التي هي جسور الاتصال بين الأوداء سلما ، قد كشفت نصف حقيقة الأمير ، وتكشّف النصف الآخر حين تملأه الشاعر فى احتدام الوغي . لقد نظر إليه آنئذ نظر المفتون بجبروته وشجاعته ، والصورة التى أداها التشبيه البليغ فى قوله (والسيوف دم) قد خلقت بدورها التصور التام لما كان يحوّم على الساحة من أشباح الموت وقتامة الفناء .

إن الأمير في دعة السلام وبلهنيته ، وفي حومة الحرب الضروس ، لأعظم خلق الله قاطبة . إنه رجل سلام ورجل حرب لا نظير له ، وإن مناقبه ودماثة خلقه لأحسن ما في هذا الحسن الشامل الذى انتظم حياته كلها ،

ولايفوتنا أن نلاحظ الجنوح الظاهر إلي المبالغة فى المدح ، إذ رفع المتنبى أميره في الفضل علي البشر كافة ومنهم المقدمون الأعلوْن من أنبياء الله ورسله ، اللهم إلا إذا كان القصد تقديمه على الكافة من أحياء زمانه . وعلى أية حال فالمبالغة في الفخر بالنفس والإعلاء من شأن الممدوحين سمة لا يخطئها المتأمل في شعر أبى الطيب ، ولقد ذكر الشاعر اسم التفضيل (أحسن) ثلاث مرات وقرنه فى المرة الثالثة (بأل) التعريف محققا بذلك تدرجا محمودا في انديا ح المعني إلى غايته عن طريق مايمكن أن نسميه شغف المتنبي بالمبالغة والتصرف في صيغ الأداء بإيجاد تفضيل مطلق علي التفضيل الأساسى ، بحيث تصبح الشيم أحسن هذا الأحسن من كينونة سيف الدولة ، هذا فضلا عن تكثيف ذلك النسق الموسيقي الداخلى المرغوب في بنية البيت الداخلية .

وفي ستة الأبيات التالية ينصرف لمدح سيف الدولة بأخص خصائصه ، فيؤكد فروسيته النادرة ، وكلفه الفائق بالبطولة بحيث ترقي عنده إلى درجة الجهاد ، يقول أبو الطيب :

فـوتُ العـدوِّ الـذى يَمّمتَه ظـفـرٌ ... فى طيـه أسفٌ ، فى طيـه نِعَمُ

قد نابَ عنكَ شديدُ الخوفِ واصطَنعتْ ... لك المهـابةُ مـالا تصنـعُ البُهـمُ

ألزمتَ نفسـكَ شيئـا ليـس يَلْزمُهـا ... أن لا يواريَهُـم أرضٌ ولا علـم

أكلّمـا رُمْت جيشـاً فانثنى هربـا ... تصرّفَتْ بـكَ فـي آثـاره الِهمَمُ

عليـك هَزْمُهُـمُ فـى كـلِّ مُعْـتَرَك ... وما عليـكَ بهم عارٌ إذا انهزموا

أمـا تري ظفـراً حلـواً سوى ظفر ... تصافحتْ فيه بيضُ الهندِ واللُّمَمُ(٨)

لقد اتجه سيف الدولة بجنده كي يقاتل الروم أعداء الدين ، فانسحبوا دون ملاقاته جبنا وخوفا ، وذلك الانسحاب ظفر مؤكد للأمير ، غير أنه ظفر قد انطوى على ضدين هما الأسف والنعمة : أما الأسف فلأن الأمير لا يهدف إلي نصر نظري معنوي تحقق فعلا بانسحاب الخصوم ، وإنما يهدف أصلاً إلى التحام فعلي يدمرهم فيه تدميرا باعتبارهم أعداء الدين والخلاص منهم يشبع رغبته الحميمة هذه ، أما النعمة التى ينطوى عليها الظفر بانسحاب الخصوم ، فهي أن جيش المسلمين جُنِّبَ القتال والمواجهة ومالابد أن يترتب على ذلك من خسائر مهما كان حجمها صغيرا فلا شك أن امتناعها خير من وقوعها ، ثم يعلل فى البيت الثانى انسحاب الروم فيقول إنهم لم ينسحبوا دون مواجهة كما يدل الظاهر ، وإنما واجهوا فى الحقيقة جيشا لجبا مرعبا فرسانه خوفهم البالغ من سيف الدولة وكتائبه الأسطورية التى يفوقُ صنيعُها صنيعَ خوارقِ الفرسان . إن رعبهم من سيف الدولة ومهابته القصوي بنفوسهم جيش لا قبل لهم بمواجهته ، ومن ثم كان انسحابهم المبكر أمام ذلك الجيش المعنوي الأسطورى الخارق ، غير أن الأمير الذى اعتمد الجهاد والبطولة منهجا ، لا يرضي بذلك النصر المؤكد لأنه فوز لم يسفك فيه ، ونتيجة له دماءَهم ، ولأن الهمةَ شامخةٌ والإرادة صلبة فعليُّ بنُ حمدانَ قد أوجب على نفسه مالا يجب وألزمها مالا يلزم . فرأى ضرورة أن يطاردهم غِبَّ انسحابهم ليفنيهَم إفناءً تاما فلا يبقى منهم بقية تحتمى بسهل أو تلوذ بجبل .

ويبدى أبو الطيب في البيت الرابع غاية مدحه وإعجابه بصنيع أميره ذي الهمة التى لا تُدْرَك . إنه أبدا يطلب الأعداء ويسعى إليهم للتنكيل بهم . فإذا بهم يخشونه ويلوذون هاربين ، ولا يقنع الأمير مستجيبا لطبعه الغلاّب وعزيمته المتدفقة إلا بأن يطاردهم إلى حيث فروا واحتموا فيلحق بهم غاية

الهزيمة والهلاك . ويمعن المتنبي في البيتين الخامس والسادس فى تكثيف الإيحاء بتجاوز الأمير كل حدود الشجاعة بتخطي الأعراف السائدة . إنها تلزمه بأن يهزمهم إذا جسروا على مواجهته في ميدان القتال ، ولا عليه بهم إذا انسحبوا خائفين مهزومين . فالعار آنئذ عارهم وليس عار سيف الدولة ، غير أن الأمير – وفقا للبيت السادس – لا يستمتع بفوز أو يلتذ بظفر مالم ينجزه فى حومة الجلاد وساحة الصراع حيث تطيحُ سيوفُ جند الإسلام برؤوس خصومه وشانئيه من أجناد الروم .

واصطناع أبى الطيب لثقافة المتكلمين والمتفلسفة في عصره لا يخفي على المتأمل ، فها هو فى أول الأبيات الستة التى بين أيدينا يخبر عن الأمر بنقيض معناه . إنه يقول : " فوتُ العدو ظفرٌ " فالفوت الذي هو الفرار والهزيمة قد أخبر عنه بالظفر ، وهى مطابقة لفظية بيّنة ، ورغبة حميمة لدي الرجل لتجلية قدرته علي التصرف فى المعاني ، وبديهي أن الفرار المهزوم صنيع الروم ، والفوز – من ثَمَّ – لسيف الدولة ، ولا يلبث الشاعر أن ينهج النهج نفسه في الجمع بين الأضداد حين يضم جناحي هذا الظفر علي الأسف والنعم فى آن واحد ، وفى مطابقة لا تخفي . إن فوز المسلمين بانسحاب الروم قد انطوي علي أسف سيف الدولة التواق إلي تدميرهم . كما انطوي علي توقّى خسائر الجيش ، وهى نعمة لاشك فيها . أما نسق الموسيقى الداخلية في البيت ، فقد حققه توالى الكلمتين : (ظفرٌ ، أسفٌ) وقد دارتا على صيغة صرفية وموسيقية واحدة حققت رويا داخليا خاصا ، ثم فى ورود كلمة (نِعَمٌ) فى قافية البيت على ثلاثة أحرف مثل سابقتيها ، وإن اختلفت فى الإيقاع عنهما ذلك الاختلاف اليسير الجميل الذى يربطها بهما أكثر مما ينافرها عنهما ، ويحقق الإيقاع الداخلي – فضلا عن ذلك – بذلك

التوالى الأسر للجار والمجرور والضمير المضاف إليه في قوله (فى طيّه) مرتين في عجز البيت الأول .

وفي البيت الثاني يُعَوِّل أبو الطيب علي تخليق المعني بالصورة الاستعارية مرتين حين يكون الخوف الشديد نائبا عن الأمير في محاربة الروم ، وحين تصنع مهابته فيهم ما يجاوز صنيع الفرسان الذين بلغوا الغاية في الشجاعة . هذا فضلا عن تلك المقابلة بين قوله : " اصطنعت لك المهابة " وبين " مالا تصنع البهم " ولا يخفي علينا أن المقابلة والطباق بين يدى المتنبي لم يعودا بذينك النوعين الساذجين العَفْوِيَّيْن من فنون الصياغة لفظا وتركيبا ، وإنما هما نتاج ثقافة دقيقة وتأمل مُمَحِّص يقصد قصداً إلى إنجاز توشيات لامعة ومعايير خاصة في لغة الشاعر وصياغته وطرق أدائه ، وتلك المقابلة التي يقصد إليها العقل قصدا لا تلبث أن تطالعنا في صدر البيت الثالث حين يقول : ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ، كما أننا نرصد الطباق الدال علي الشمول بين كلمة (أرض) وقد أفادت فى السياق دلالة السهل وكلمة (جبل) .

ونحن نعلم كلف أبى العلاء المعرى بأبي الطيب وتقديره العالي لفكره وشاعريته حتي ليخصّه بمولَّفيْن هما : اللامع العزيزي ، ومعجز أحمد (٩) ، وتأسيسا علي ذلك نظن ظنا بأن أبا العلاء الذى ألزم نفسه فى الحياة وفي الفن كليهما مالا يلزمه ، ربما تأثر توجهه في ديوانه " لزوم مالا يلزم " خاصة عنوان الديوان - بقول أبى الطيب فى صدر هذا البيت (ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها) .

ويذهب الأستاذ البرقوقي رحمه الله إلى أن الاستفهام فى صدر البيت الرابع إذ يقول المتنبى :

أكلَّمـــا رُمتَ جيشـــاً فانثنى هربـــا تصرَّفتْ بكَ فـي آثـــاره الهِمَمُ

هو استفهام للاستنكار (١٠) ، ونحسبُ أن ربط الاستفهام هنا بالسياق النفسي العام يصرفه بلاغيا للإكبار لا للاستنكار ، وذلك لأن أبا الطيب يسوق البيت ضمن الأبيات الستة لمدح سيف الدولة بالفدائية وبأقصي درجات الشجاعة التي تتجاوز الأعراف ، ومن ثم فالبيت إذ يبالغ بإظهار تلك الشجاعة التي تلزم صاحبها مالا يلزم إنما يتصد إلي غاية مدحه بإتيان مالا قبل لغيره بإتيانه ، ويعمد أبو الطيب في عجز البيت إلى تكثيف وصف الأمير بشجاعة أولي العزم عن طريق الصورة الاستعارية التى شخّصت الهمم وجسدتها ، ونلمح فى البيت الخامس نمطا من أنماط رد الأعجاز علي الصدور يكاد يبرأ من آفة التعمّل ، لأنه ينتصر باقتضاء المعني إياه وذلك في قول أبى الطيب :

عليـــك هَزْمُهُمُ فـــى كـــلِّ مُعْـــتَرَك وما عليـكَ بهـم عارٌ إذا انهزموا

هذا فضلا عن أنه قد دل بالأولي علي هزيمة الميدان الفعلية . في حين دل بالثانية على الفرار جبنا عن المواجهة .

حتى إذا أدركنا البيت السادس رأينا المضمون مؤدًى بصورتين استعاريتين سلستين إذ صوّر استمتاع الأمير بالنصر الفعليّ تصويرا حسيًا باستخدام دلالة المذاق الحلو ، ثم أدى دلالة النصر الواقعى النابع من تنكيل المسلمين بالروم بصورة أخرى تجيش بالنضال والموت إذ تداخلت سيوف جند الإسلام بهامات الخصوم تداخل أيدى المتصافحين ، وقد تُصادَرُ هذه الصورة بتنافرها مع دلالة التصافح ، ولكننا لا نلبث أن نتذكر كم من الخصوم الألداء يتصافحون وقد طفحت منهم القلوب والنفوس بالشحناء والبغضاء ،

أما الاستفهام فى صدر البيت فقد أدى دون لبس إلي تقرير مضمون البيت وتثبيته في نفوس المتلقِّين .

وبعد إذ فرغ المتنبى من مدح سيف الدولة ، يلتفت إلى عتابه ، وهو قصده الأساس من قصيدة الوداع هذه ، وإنه لعتابٌ مر تكاد تصل به مرارته إلي عتبات الطعن ، وقد كسته قدرات الصياغة غلالاتٍ عتابيةً شفافة تكاد لا تخفى ما انسدلت عليه ، يقول أبو الطيب :

ياأعدلَ الناسِ إلا فى معاملتى	فيكَ الخصامُ . وأنت الخَصْمُ والحَكَمُ
أعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً	أن تحسبَ الشَّحْمَ فيمن شحْمُهُ ورمُ
وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظِرِهِ	إذا استَوَتْ عندَه الأنوارُ والظلمُ (١١)

إن أبا الطيب قد انتهى بعد تسع سنوات من صحبة الأمير إلي أنه أعدلُ البشر كافة في معاملة الناس كافة ، باستثنائه هو ، أى أن الأمير يخصه وحده بالظلم ، وعلى غير طبيعته العادلة ، فهو إذن ظالم ومتحامل ، يقصد إلي الظلم قصدا ، ويتسر عليه نفسه قسْراً ، وإن الأمير ليعلم أن شخصه محور الصراع بين أبي الطيب وشانئيه في البلاط وما أكثرهم ، وما أفدح كيدهم له وحقدهم عليه ، وكان يتعين عليه إن تراجع عن نصرته أن يبقى فيصلا عادلا بينه وبينهم ، غير إنه – من أسف – قد أسلم إليهم قلبه وأذنيه فأوغروا صدره علي أبى الطيب بوشاياتهم وأكاذيبهم ، وملأوا مسامعه بمهزول أشعارهم ، وصار الأمير في نهاية الأمر خصما لأبى الطيب وحكما بينه وبين نفسه ، وحكما بينه وبين ألدائه في البلاط . فقضية أبي الطيب إذن قضية خاسرة وقد تحوّل حَكَمه وملاذُه إلي صفوف الخصوم فصار منهم ، وهو الذى لا معدي لأبي الطيب من أن يرضي بحكومته الظالمة ،

فليس ثمة من يحكُّم فى الأمير .

ولايخفي علينا أن العتاب – هنا – قد تجاوز تُخُومَه تماما ليصير نوعا من التعنيف الزاجر لسيف الدولة . بل صار نوعاً من تأكيد غاية الظلم القبيح والتحامل السفيه فيه ، ولامناص لنا من أن نري الشاعر فى البيت الثاني يُنَمّى ما بدأه في سابقه من تأنيب الأمير وتسفيهه والتعريض به ، واتهامه – كذلك – بلىٍّ ذوقه الفني للإعجاب بساقط شعر خصومه وسفسافه كما لري طبيعته العادلة السمحة كي يظلم أبا لاطيب . إن الأمير ذو نظرات لابد أن تصيب إذا ما قصدت إلي اجتلاء الحقيقة في نفس البشر وفي قيمة الفن جميعا ، إنه لا يمكن أن ينخدع في المشاعر ، فهو المجرب الخبير ، ولايمكن أن يحسب غث الشعر سمينا ، فهو الشاعر الأديب المتذوق البصير ، ولئن كان أبو الطيب في ظاهر كلامه يرمي بالأمير عن هذا الخلط المعيب ، فواقع الحال ومن خلال جمّاع النص ، إنه تدني إليه بالفعل في البشر والفن كليهما ، فقد انحاز إلي خصُوم الشاعر وهم عنده مدعو إخلاص ومتكلفو حب ، وليسوا مخلصين محبين علي الحقيقة ، كما إنه ليستمعُ إلي أشعارهم ويستسيغُها ويجيزها ويعتبر هؤلاء جميعا في الحياة والفن ذوي قيمة وشأن ، وهم علي التحقيق ترّهات وفُقاعات ، لقد اعتبرهم أشياءً وليسوا بأشياء ، وحسب ورمهم شحماً وليس غير مرض تشوّهيٌ خبيث . إنهم متشاعرون مدّعو إخلاص ، والمتنبى هو الشاعر المخلص والمحب صادق الحب ، ويتولد البيت الثالث من سابقه تولّداً عضويا لازما . ذلك لأن من يصنع صنيع الأمير في هذا الخلط المعيب بين حقائق النفوس وحقائق الفنون يكون قد عطل قدرات حسّه وروحه جميعا عن التمييز بين الأضداد والتمييز بين المتناقضات ، وإن الذى يساوي بين أبي الطيب وخصومه – إنسانيا وفنيا – ليكون مساويا بين الأنوار

والظلمات علي غير مايقبله القياس السليم والمنطق المستقيم .

وهكذا نرى شخصية أبي الطيب – وقد تحددت معالمها تماما – واضحة غاية الوضوح في الأبيات ، حتي ليبلغ شعوره بنفسه واعتداده بكبريائه رفنه أن يجمع في ثلاثة الأبيات السابقة بين تهجمه علي الأمير واتهامه بالأمّت الصريح المتعمد عن الذم لتقريع ، يجمع ذلك إلي النخر بشخصه ، والاعتداد البالغ بفنه ، ولئن كان خصومه جميعا دم الورم والظلمات ، فهو بطبيعة الحال الشحم والنيّرات . إن الشعر بين أيدينا صورة مؤدية لحقيقة تلك النفس الطامحة القلقة المتجاوزة الساعية إلي التسيّد والزعامة ، وإذا كان أبو الطيب قد اشترط أن ينشد مدائحه جالسا ، وألا يُقبِّل الأرض بين يدي حاكم ، ثم رفض بعد ذلك أن يقصد غير الملوك ومن فى درجتهم . مترفعا حتى عن الوزراء ورجالات الدولة الكبار ، فإنه يثبت في قصيدتنا هذه أنه الجسور إلي الحدّ الذي يهاجم فيه أميراً عربيا فارسا جهير الصيت في بلاطه ، وبين حاشيته ، وأن يقرن تهجمه عليه بفخر صارخ النبرات بنفسه كما رأينا وسنرى وشيكا .

وبالمثل فإن لغة الشاعر فى الأبيات هى صورة فنّه ، وكفاء خصائص عبقريته ، فهو لا يزال كلفا بالجمع بين المتناقضات فى ساحة واحدة ، بل في مساحة ضيقة كى تتوتر الأذواق وتتنبه العقول لما يقول ، فلقد أثبت للأمير غاية العدل وغاية الظلم في صدر البيت الأول ، كما أثبت له الخصومة والحكومة فى عجزه ، وحقق – وصولا إلى ذلك – مقابلة في الصدر وجناسا وطباقا في العجز بصيغة دقيقة تجبرنا على أن نتقبل ولانتأفف أو نرفض ، وفى البيت الثاني يطابق بين الشحم والورم فضلا عن كون الأول استعارة تصريحية عن الأصالة والثاني ضريب ذلك عن التحمل والادّعاء الخبيث ، وفى

صدر البيت الثالث يرد الاستفهام لنفي الانتفاع بالحواس والأحاسيس عمن يساوي بين المتناقضات ، ولا يلبث أن يطابق في العجز بين الأنوار والظلم فضلا عن أنهما استعارتان تصريحيتان أولاهما عن الشاعر والثانية عن خصومه ، ولانخطىء تشبيه التمثيل في مؤدي العجز ، فتوجُّهُ أبي الطيب إلى القول بأن الفرق بينه وبين شانئيه ظاهرٌ بيّن كالفرق بين الأنوار والظلمات .

ثم يخلصُ الشاعرُ في البيتين التاليين إلي أقصي درجات الفخر بفنه حتي ليكاد زعيقه فيهما يكون غرورا قبيحا رائعا لا نملك أنفسنا – بمعايير الفن – إلا أن نعجب به الإعجاب كله ، خاصة أنه تعبيرٌ عن نفس صاحبه مخلصٌ وحميمٌ ليس فيه نأمة واحدة من تكلف أو ادعاد ، بل إنه لَلصّدقُ الفني والإنساني بأجلي صورهما ، فهكذا خلق المتنبي ، وهكذا عاش ، بل بسبب هذا الاعتداد البالغ بقيمته وبفنه قد قتل ... يقول أبو الطيب :

أنا الذى نظَرَ الأعمى إلى أدبى وأسْمَعَتْ كلماتي من بـه صَمَمُ
أنامُ مِلءَ جفونى عن شواردها ويسهرُ الخلق جرَّاهـا ويخْتصَمُ (١٢)

إن المتنبي يقرر في أول البيتين أن عطاءه الفنّى قد تجاوز حدود الإنجاز وأدرك تخوم الإعجاز ، فمعلوم ألا يري الأعمي أدبا ، وألا يسمع الأصمُّ شعرا إلا أن يكون ذلك محمولا علي المعجزات والخوارق ، وليس هذا التصوّرُ والتصوير بمستغرب من رجل لا نستطيع أن ندينه أو نبرئه من تهمة التنبؤ ومحاكاة القرآن ، بل إنه لمن التوافق الغريب أن أبا العلاء الذى كلف بشاعرنا أشد الكلف ، وكان إذا أُنشِد هذا البيت قال : " أنا الأعمى " من التوافق الغريب أنه اتهم بدوره بمحاولة محاكاة القرآن الكريم في كتابه

الفصول والغايات ، وكأنه كان يسعى هو الآخر إلي تحقيق معجزة كلامية من إبداعه ، فضلا عن أنه - كما ألمعنا سابقا - قد سمّى أحد كتابيه عن الشاعر باسم ذي دلالة خاصة في هذا المجال هو " معجز أحمد " ، إن إبداع المتنبي - وقد رقى لدي صاحبه إلي حد المعجزات - ليشرد فى الآفاق ، وتلهج به الألسن والقلوب ، وهو لا يكلف مبدعه من أمره عسرا ، ولا يركب وصولا لإبداعه مركبا صعبا ، بل إنه ليبدعه متي شاء وكيفما شاء ، وهل تجد الزّهرة عناء في بث العبير أو النحلة معاناة في الإتيان بالأرْي ؟ إنها إذن الموهبة الخلاقة والطبيعة الدفّاقة التي تبدع دون جهد أو إجهاد ، وليس كذلك خصومه من أدعياء الشعر محدودى الموهبة أو معدوميها ، إنهم يجدون العنت كله ، ويتجشمون غاية العناء في الصف والنظم والتلفيق ، وذلك ديدنهم لافتقادهم خصوبة الموهبة وتمحّلهم ماليس فيهم . إن النظم تحوّل لدي هؤلاء إلي معركة عنيفة يخوضونها ضد الأفكار والكلمات والصياغة كى يقسروها ويرغموها علي المطاوعة وأنى لهم إلي ذلك من سبيل .

وهاهو ذا المتنبي المتشامخ بفنه إلي ذراً لا تُدْرَك ، والشاعر بذاته قبل الفن وفوق العالم ، يبدأ بيت رفع راية عبقريته " بالأنا " فهو أولا ، والفن الرفيع يأتي من خلاله ، يضع الضمير الزاعق الضخم " أنا " يتبعه الاسم الموصول ليخبر عن عبقريته به وبجملة الصلة ، فالفن المعجز إذن ، به ، ومن خلاله ، ويكثف منحاه في عجز البيت بأن يعطف على جملة الصلة : " نظر الأعمي إلي أدبى " "وأسمعت كلماتي من به صم " والأنا فضلا عن ذلك موجودة في ياء المتكلم في قوله : أدبى ، وكلماتى ، وجفوني في البيت التالي ، وهو لايزال آخذا بمنهج الجمع بين المتناقضات إعمالا لملكة العقل . ورغبة فى الإبهار وإظهار الاقتدار ، فالأعمى يري فى صدر البيت والأصم يسمع

في عجزه ، والطباق اللفظي وارد بعد التماع الفكر وحفز الانتباه ، وفي البيت التالي لايزال يؤكد على عظمته الفنية من خلال نفسه كذلك ، فجملة " أنام " خبرٌ عن مبتدأ محذوف تقديره " أنا " إن الأنا عند أبي الطيب محور العالم من غير شك ، وهو إذ يكني عن تمكنه الفني المطلق بالنوم العميق إذ هو مطمئن إلي قدرة العبقري في اجتلاء روائع الشعر ، يكني في عجز البيت عن إقفار شانئيه من خصوبة الموهبة بأرقهم وصراعهم ضد المعاني لاقتناص الصياغات والأفكار ، واللافت أن أبا الطيب وقد وضع " الأنا " في صدر البيت قابلها في العجز بالخلق طرًا ، ومعلوم أن القصد يتجه إلي خصومه من الشعراء . غير أننا لا نستطيع أن نغض الطرف هنا عن دلالات الصياغة لدى شاعر يعنى مايقول تماما ، ويقصد إليه قصدا ، هو شاعرنا أبو الطيب المتنبي ، إنه إذن في كفة والخلق بأجمعهم إزاءه في كفة أخرى ، وهو بتوحّده وسموقه وعبقريته لا يعاني ، وهم أجمعهم يعانون ويختصمون ، وهو لا يزال يجمع بين المتناقضات ، فيطابق بين أنام وأسهر ، ويقابل بين مؤدى يُسْرِ الخلق لديه في الصدر ، وعُسْرِه لدى خصومه في العَجُز .

وفي سبعة الأبيات التالية يلْتَفتُ أبو الطيب الفارس إلي فروسيته كي يفخر بها بعد أن فرغ من غاية الفخر بالفن .

ومن حق المتنبي – عندنا وعند غيرنا – أن يفخر بفروسيته وإقدامه ، فأغلب الآراء تصفه بغاية الشجاعة والإعتداد بالنفس بما قد يجاوز الاعتدال المحمود إلى خُرْقِ الغرور المذموم ، فقد أورد البديعي أن سيف الدولة قد عهد به إلى المدربين فعلموه الفروسية وفنون القتال ، وأنه كان يصحب الأمير في بعض غزواته ويُظهر فيها ضروبا من الثبات ورباطة الجأش ، وقد حدث في إحدي الغزوات أن انسحب الجيش ولم يصمد للقتال سوي الأمير

وستة رجال أحدهم أبو الطيب (١٣) .

وقد بلغ اعتداده بشجاعته حدّ الغرور الأخرق الذى أورده مورد الهلاك على يد فاتك الأسدي ورجاله ، فقد أورد البديعي ماذكره الخالديان عن أبي نصر الجبلى خاصا بملابسات مصرعه . قال الجبلى : إنه قابل أبا الطيب وتحدّث إليه محذراً من فاتك الأسدي ورجاله ونصحه بأن يصحب معه من يقوم بحراسته ، فأجابه المتنبي " والله لا أرضي أن يتحدث الناس أنى سرت في خفارة أحد غير سيفي . معاذ الله أن أشغل فكرى بهم لحظة عين " (١٤) ثم أصر علي رأيه ، وسافر مع ولده وبعض غلمانه فكان مصرعه على يد فاتك ورجاله . من حق المتنبي - إذن - أن يفخر بشجاعته ، فهو يحكى الحقيقة ولا يتشدق بالادعاء . إنه الصدق متشحا بلغة الفن وطرق الأداء فيه ... يقول أبو الطيب :

وجاهلٍ مدّهُ في جهله ضحِكى ... حتي أتتْهُ يدٌ فَرّاسَةٌ وفمُ

إذا نظرْتَ ثُيوبَ اللّيثِ بارزةً ... فلا تظنَّنَّ أنّ الليثَ مُبتسمُ

ومهجةٍ مهجتى من همِّ صاحبها ... أدركتهُا بجوادٍ ظهرهُ حَرَمُ

رجلاهُ فى الرّكض رجلٌ واليدان يدٌ ... وفعلُه ما تريدُ الكَفُّ والقدمُ

ومرهفٍ سِرْتُ بين الجحفلَيْن به ... حتى ضربْتُ ، وموجُ الموتِ يلتطمُ

فالخيلُ واللّيلُ والبيداءُ تعرفُنى ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

صَحِبْتُ فى الفلواتِ الوحشَ مُنفرداً ... حتى تعجّبَ من القُورُ والأكَمُ (١٥)

ويقفُنا المتنبي في أول الأبيات علي أن خصومه ليسوا في ساحة الوغي فحسب . بل إنهم كثر فى الحياة كذلك ، وواحدهم ونموذجهم يتمادي في

خُرقِه وحُمقه مَسوقًا بمالم يَع من ابتسامات سُخْر أبى الطيب به ، ومخدوعا – لسفهه – بظاهر التبسم عن باطن التحفز والتربّص ، ولا يتنبه لتدنيه في التطاول المرذول إلا وقد نكبه أبو الطيب وأوقع به غاية العقاب ، ولا يلبث في ثاني الأبيات أن يخاطب كل مأفون من خصومه مخاطبة الأستاذ الحكيم من هم بحاجة إلي فضل التعليم والتوجيه والتبصّر بحقائق الأشياء ، فينبههم إلي خلطهم حين حسبوا نيوب الأسد وقد برزت قرينة ابتسام ، وهي في الحقيقة دليلُ غضب ونذيرُ انقضاض ، وجَلِيٌّ هنا أن المتنبى هو الأسد ، وأنَّ بصرهَ وبصيرتَه إذ يُنشدُ ذينك البيتين كانا على كلّ خصم من خصومه المحتشدين لسماعه وتحدّيه فى بلاط الأمير ، وأنه لَيُدركُ أنه الشُّجَى في حلوق شانئيه ، وأنهم لا يستهدفون أقل من حياته يدمرونها وينفضون أيديهم منه ، وإنه إذ يدركُ ذلك تماما لَيَتَجهّزُ ويتحفزُ وينطلق سابقا بالموت إليهم علي ظهر جواد بَرْقىٍّ السرعة ، لا يُنَالُ فارسُه أبو الطيب الذى قدر عليه وامتطاه ، إنه جوادٌ دُربةٌ أصيل ، تجاوزت به مهارته النمط المعتاد من الجرى ، فأدرك فنّ النقال والمناقلة ، واختصر أربعة أعضاء جَرْيِه إلي عضوين فصارت الرجلان رجلا واليدان يداً ، وهو – إلى ذلك – دارٍ بما يُنجَزُ به النصرُ من مهارات حتى ليندفع ويتوقف وينحرف وفقا لمقتضى المعركة ، وبما يُغْنى أبا الطيب عن توجيهه بكفيه وقدميه ، وملاك فروسية الفارس بالفرس والسيف ، يتصرف فيهما قلبٌ راسخٌ وإرادة حديدٍ ، وهاهو أبو الطيب قد امتلك القلب والإرادة وامتطى الفرس واستل مهنّدَه حادّ الشفرتينْ قاطعَهما ، فاخترق به الجيْشين الهائلين دون أدني تردد أو وجل ، وخاض عباب الموت ، وركب موجهُ المتلاطمَ إلي أن أدرك خصمه فأرداه إرداء ، ولاعليه بعد ذلك أن يطاول النجوم بفخره هادراً ببيته المشهور كي يُكرِّس تسيُّده المطلق للفرُوسية والشجاعة والنزال

والرمح واجتناء الثقافات والبوح بروائع الإبداع ، إنه رب الخيل والليل والبيداء وسيد السيف والثقافة والإبداع الشعري جميعا ، وإنه لَيُنَمِّي في البيت السادس قيمة كبري في باب الشجاعة واقتحام المخاوف والانفراد بالموت والوحش في المفازات . إن الصداقة الثابتة بينه وبين ليل الصحراء في البيت الخامس لَتتكثَّفُ في سادس الأبيات بعجيب صنعه في الانفراد والتوحد بوحوش الصحراء وكواسرها حتى لَيَصَّاعد التعجبُ المتسائلُ لهذا الصنيع .

ويُلفتُنا أن أبا الطيب لم يَقْسِم النّصَّ قسمة عادلة بينه وبين أميره ، بل لا عجب أنْ نراه قد تحيَّفَه ، فمدح خلقه وفروسيته في ثمانية أبيات (١٦) بينما افتخر بنفسه – دهاءً وفروسيةً وثقافةً وشاعريَّةً – في تسعة أبيات (١٧) والأصل أن يتجه جُلُّ النص إلى الأمير ، فإن كان للشاعر أن يذكر نفسه فدائرا في فلكه ، لا متعالياً عليه أو متجاوزا إياه ، ولكنه أبو الطيب ذو النفس المتميزة والحوافز المتأججة والطموحات التي لم يحدّها سوى الموت ، وإنه ليفخرُ هذا الفخر الصارخ المتجاوز في حضرة أمير جرير الشخصية والصيت وفي مواجهة خصُوم شانئين مُتحفزين يعلم يقينا أنهم لَيَسْعون إلي حتفه ماوسعهم إلي ذلك الجهد .

وإذا ما التفتنا إلي لغة الأداء في الأبيات الستة رأينا أبا الطيب يتدني بقدر أيّ من شانئيه ، فيدلُّ عليهم أُحادَ بتنكير كلمة (جاهل) ولا تلبث (الأنا) أن تظهر مرة ثانية في ياء المتكلم إذ يقول : " مدّه في جهله ضحكي " ثم يورد المجاز المرسل الدال على غاية الفتك والفرس بكلمتَي (يد : وفم) وجليٌّ أن التنكير هنا للتعظيم الذى أكده قبلا إذ وصف اليد بأنها (فرَاسة) ، ويمكن أن نرى في كلمة (فرّاسة)تورية تُعرِّضُ بأبي فراس الحمداني ، وقد رأينا قبلا كيف كان يلوم ابن عمه سيف الدولة لإفراطه فيما يخص به

أبا الطيب ، فضلا عن تردد القول بما كان بين الرجلين : أبى الطيب وأبي فراس من صراع حول خولة أخت سيف الدولة ، ويأخذ الأستاذ محمود شاكر بهذا التصور ، إذ يذهبُ إلى أن المتنبي قد أحب الأميرة ، وأن سيف الدولة وعده سرًا بها وكان عِلْمُ أبى فراس بالأمر سببا رئيسا فيما احتدم بين الرجلين من مجابهة وخصام (١٨) وفي البيت التالى يعوّل على التعبير عن نفسه باستعارة تصريحية نابعة مباشرة من إحساسه المفرط بنفسه ، فهو بالقطع الليث الذى برزتَ أنيابه ، وهو تصوير يتسق تماما والتعبير بأدوات القوة في البيت السابق ، والبيت فى مجموعه حكمة يتكىء عليها أبو الطيب في التعريض بسفه أولئك الذين يسيئون تقدير الأمور ولا يقدّرون عواقبها أو يأخذونها بظاهرها لا بجوهرها . إنهم أولئك الذين تمادوا في التحرش به مخدوعين باستهزائه الضاحك بهم ، إلي أن انقض عليهم وأودي بهم . وفي البيت الثالث يُكَنِّى عن أنه الهمُّ الشاغل لخصومه ، وأن وكدهم اقتناص حياته ، ويستخدم التنكير فى (مهجةٍ) لتحقير أىٍّ من خصومه الشُّر ، فالكلمة بتنكيرها قد دلّت علي تحقير الكيف وتكثير الكَم ، وولعه بالعزف علي تجانسات الألفاظ والحروف يتجلىّ فى أن يُتبع (مهجة) بـ (مهجتى) التي تضاف إليها (الأنا) ممثلة فى ياء المتكلم وتبرز (الأنا) كذلك في (أدركْتُها) ممثلة في تاء الفاعل المتكلم كذلك ، ولايخفي علينا دلالة جملة (أدركتُها) بعد قوله : " ومهجةٍ مهجتى من هَمِّ صاحبها " إنها الدلالة علي غاية شجاعة الرجل وتعويله على أن يبادرَ خصومَه قبل أن يبادروه اعتقادا منه بمزية الهجوم علي الدفاع ، فهو كي يدركهم لابد من أن يطاردهم ، وتنكير " جواد " في عجز البيت دل على مدحه والإعلاء من شأنه ، ثم كنّى بالجملة الاسمية (ظهرُه حَرَمٌ) ومافيها من بليغ التشبيه علي غاية السرعة

لذلك الفرس الأصيل . إذ يستحيل على خصوم راكبه أن يدركوه فيصيبوا من تحرُّم بامتطائه ، وفي صدر البيت الرابع أورد تشبيهين بليغين علي امتلاك الجواد فنَّ المناقلة في عدوه ، فهو ليس من أفراد الخيول التي تصطنع فنون الجري المعتاد ، لقد صارت الرِّجْلان رِجْلا وكذلك اليدان يداً إذ أخذ في ركضه الهادر المندفع ، وقد ضمَّن التصوير الاستعارى في عجز البيت كناية دالة علي غاية خبرة الجواد ، فهو لا يحتاج إلي توجيه اليد والقدم ليسلُكَ وَفْقًا لمقتضيات الكرّ والفرّ ، إذ هو غني بخبرته الفائقة وحساسيته وحسن دربته عن ذلك كله ، وفي البيت الخامس يُعظّم سيفه بتنكير (مرهف) ويكنى عن غاية الشجاعة بأن اقتحم الجيشيْن اللُّجِّيَيْن المتصارعيْن شاهرا ذلك المرهف إلى أن أدرك مبتغاه فطعنَ وقتل ، وتتجسد الأنا مرتيْن محمولة على تاء الفاعل فى قوله : (سرتُ) و (ضربتُ) ، ولاقيمة لصنيعه هذا إلا في معركة رهيبة يتفاقم فيها الهول ويصّاعد الموت ، وقد أدت الاستعارة والترشيح لها في عجز البيت ذلك الهول أداءً بليغًا ، ويلْفتنا في البيت الخامس بروزُ أل التعريف في كل من الخيل والليل والبيداء والسيف والرمح والقرطاس والقلم ، وإنها لجديرة بأن تُكَبَّر وتُعظَّم لأن كلا منها معراج يعرج المتنبى به وعليه إلي وجه من وجوه عظمته ومجده ، وهو إذ شخّصها ونسب إليها معرفة وثيقة به نراه قد أدي بأبلغ طرق الأداء وأكثرها تكثيفا ما يصور قدْر فروسيته لتبريزه في امتطاء خيل الحرب وقيادتها ، وقدْرِ ثبات جنانه وقوة جأشه لاقتحامه الليل متوحدا غير هيّاب ، وقدْر جلَده وصبره على المعاناة باقتحامه المفازات ، وقدْر مهارته فى الطعان لخبرته التامة باستخدام آلاته ، وقدْر ثقافته واتساع آفاق علمه لدراسته ماسوُّدتْ به بطونُ القراطيس ، وقدْر شاعريته المتوهجة وقد امتلك القلم رمز ذلك وأداته ، وتبرز الأنا – كذلك – محمولة علي ياء المتكلم

في قوله (تعرفني) وفي البيت السادس يكثف قيمة الشجاعة وقوة القلب ، وإنها لَمنقبةٌ محمودةٌ لأبي الطيب الشاعر الفارس المشهور المغرور المحسَّد كثير الأعداء ، إنه يكني عن ذلك الجأش الثابت بانفراده بمصاحبة الكواسر في قلب المهامه ؛ وهو بذلك قدير على خوفين لا خوف واحد : خوف مواجهة الصحراء ، وهي رمزٌ للمعاناة والتيه واحتمالات الفناء ، وخوف مباشرة الوحوش ، وهي لدى البشر كافة أسبابٌ أكيدة ورهيبة للموت ، وتصور الاستعارةُ في عجز البيت قدر التّميُّز والبطولة في صنيعه هذا . إذ تدهش الأغوار والآكام من فعله الخارق غير المألوف ، والجمع بين الأضداد ماثل في (الغور والآكم) كما أن الأنا لَتبْرزُ مرتين : أولاهما في تاء الفاعل إذ يقول : (صحبْتُ) والثانية في ياء المتكلم في قوله (منّي) . وما يعتِّم أبو الطيب في سبعة الأبيات التالية أن يلتفت مرة أخرى لأميره ، لا ليمدحَه ، بل ليُعاتبَهَ عَتاباً يحرصُ في بعضه على ألا تنقطع بينهما شعرة معاوية ، ويبلغ في بعض آخر منه حد التعنيف السّافر والتأنيب الصريح ، وليس بوسع أبي الطيب إلا أن يعيش ذاته وأناه في الأبيات ، فيفخر بنفسه فخرا يدركُ به الثريا في هام السماء . يقول أبو الطيب :

يامَنْ يعزُّ علينا أنْ نُفارقَهم ... وِجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدَكُمْ عَدَمُ
ماكان أخلقنا منكمْ بتكرِمَةٍ ... لو أنَّ أمركُم من أمرنا أمَمُ
إنْ كان سركُمُ ما قال حاسدُنا ... فما لجرح إذا أرضاكمُ ألَمُ
وبَيْنَنَا - لو رعيتُم ذاكَ - معرفةٌ ... إنّ المعارِفَ في أهلِ النُّهَى ذِمَمُ
كمْ تطلبون لنا عيباً ، فيُعْجِزُكُم ... ويكرهُ اللهُ ما تأتون والكرَمُ
ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ عن شرفي ... أنا الثريا ، وذانِ الشيبُ والهَرَمُ
ليت الغمامَ الذي عندي صواعقُهُ ... يُزيلُهُنَّ إلى مَنْ عندهُ الدِّيَمُ (١٩)

ولا خلاف عندنا أو عند غيرنا في أن أبا الطيب أحبّ الأمير ، ولاخلاف كذلك علي أن سنوات أبي الطيب التسع في بلاط الأمير كانت هي أزهي أيام عمر الشاعر وأحفلها بالمجد والشعور بالقيمة ، فضلا عما ألمحنا إليه آنفا من تلك العلاقة العاطفية المحتملة بين الشاعر وخولة بنت حمدان شقيقة الأمير ، ولذلك فالبوح بالأسى ، والحرص علي ألا تنقطع شعرة معاوية بينه وبين آل حمدان ، يسربلان البيت الأول بغلالة من الشفافية الدامعة التي ندر جداً أن ندّتْ من أبي الطيب الصلف المتعجرف ، ولا يبعد أنه وقد تيقن من أنه فقد بالفعل فردوسه الأرضي في حلب ، كان يُرجِّي العودة بعد حين يدور فيه الزمن دورته ، وتسكن النفوس وتهدأ العواصف والعواطف ، فالبيت إذن جسرٌ وردىٌّ من المودة يمدّه الشاعر بينه وبين الأمير مدفوعا بعواطفه الصادقة وأشواقه العائدة إلي الأوداء قبل أن يغادرهم . يقول أبو الطيب : إنها لَمِحْنةٌ تجتاحه إذ يُضطرُّ إلى مغادرة الأحباب ، وإنهم إذ هم ذوو الفضل والوداد والعواطف ليتلاشي إلى جوارهم كيانُ الآخرين ممّن اتصل الشاعر بهم أو سيتصل ، ويستمرُّ أبو الطيب معاتبا عتابا ودوداً في البيتين التاليين ، فيهمس للأمير بأنه أحقُّ الناس بكرمه وحبه لولا سوءُ رأيه الطارىء فيه وتغيُّره عليه بفعْل وشايات الشانئين وتحريضهم ، وتصّاعد المحنةُ إذ صار للأمير في شاعره تقييمٌ مُهْدِرٌ ورأيٌ سيىءٌ متشكّكٌ ، علي حين بقي أبو الطيب – وفقا للنص – على ولائه المعهود وتقديره العالي للأمير ، وهاهو البيت الثالث جسرُ حبٍّ آخر ، ونفحةُ عطرٍ يُضمِّخُ بها أبو الطيب مابينه وبين الأمير علّها تأسو الجراح وتهدهد النفوس ، إن الأمير قد استمع للوشاة واستطاب تجريحهم أبا الطيب بالكذب ، وتطاولَهم عليه بالادّعاء ، وتلك سلوكيات تنهش القلب والعصب من الشاعر ، إلا أنه ليتحاملُ على نفسه ويتجاوز آلامه مرضاة

لأميره الذى يستمع لشانئيه ويتلذذ بعذابه ، ويبدو أن أبا الطيب قد استنكف من نفسه أن يتطامنَ إلى هذا القدر وأن يوغلَ فى الانحناء وترقيق المشاعر إلى هذا الحد مرضاة للأمير ، ومن ثم لا يلبث فى البيت التالى أن يوازن صنيعه ، وأن يعود إليه عصبُه العنيفُ الثائر ، وطبيعتهُ المتأبيةُ الصلبةُ ، فيقول للأمير إنه إذ استمع إلي الرشاة المحرضين فجفاه وتنكر له ماديا ومعنويا . إنما يكون بذلك قد أهدر حقوقا حقُّها أن تُراعَى وأن تُصان ، إنها حقوق لا علاقة للحب الذى تجافى عنه الأمير بها ، فمن مقتضيات الثقافة والأدب والمعرف المشتركة بين الشاعر وأميره أن يصون المنتمون إليها بعضهم بعضا . لأن صلات العقول والأذواق عهود ومواثيق بين المثقفين يجب أن تُراعَى ، والأمير – فيما تقول الجملة الاعتراضية " لو رعيْتُم ذاك " – قد أهدرَ – من أسفٍ – تلك الحقوق ، بعد أن تنكر لعاطفة الصداقة بينه وبين شاعره ، فالصداقة أولا ثم صيانة العلماء بعضهم بعضا قد أهْدرَتا ، بل إن الأمير – فيما يقول البيت الخامس – لَيتجاوزُ ذلك إلي سلُوكيات معيبة بمعايير الدين والأخلاق جميعا ، إنه أساءَ معاملة شاعره دون علة يتكىء إليها ، ولم يكن أمامه – تبريرا لسلوكه المعيب غيرِ المفهوم – إلا أن يحاول مداراته بسلوك أكثر إيغالا في العيب ، فأخذ يتمحّلُ الأسباب ويتلمّسُ بالتوهم الأخطاء ، ويختلقُ المعايب اختلاقا فى سلوك أبي الطيب وأخلاقه . غير أنه عجز عن شىء من هذا كله ، ولم يبق إلا أنه سلوك قبيح لا يجوز لأمير في حجم سيف الدولة أن يتورط فيه ، والمتنبي هنا – فيما نرى – قد جاوز العتاب العنيف إلي الطعن الصريح والتعنيف ، وكأنه قد أبى من نفسه تلك الرقة التى أشرنا إليها آنفا ، وقصد – مدفوعا بعصبه الثائر ودخيلته المتضخمة – إلي إرضاء نفسه بعد أن أرضى الأمير ، ويردُ البيت التالى تعليلا لسابقه ، لقد

عجز الأمير ومن أثاروه علي أبي الطيب عن طِلْبتهم في التماس معايبه لأنه – رفقا للشاعر – مبرأٌ بالفعل من كل عيب . بعيدٌ عن كل نقص . إنه في عليائه نجمُ الثريا المشعُّ المتألّق ، ولايجوز عليه العيبُ والنقصانُ إلا إذا جاز الشيبُ والشيخوخةُ على الثريا ، والأمران كلاهما مستحيلان ، وعلينا ألاّ ننسى أن شاعرنا إذ يجاوزُ هكذا كلَّ حدٍّ في الفخر بشرفه وترفّعه . إنما يفعلُ ذلك إثر بيت من الأوابد تهجَّمَ فيه على الأمير وعلى سائر خصومه تهجُّماً سافرا جامحا لا تحفُّظ فيه ، وكأني بأبي الطيب قد استشعر مدي عنفه المتطرف في البيتين كليهما ، بل أدرك – فضلا عن ذلك – أن بيت الفخر الزّاعق بنفسه إن هو في الوقت ذاته إلاّ ذمٌّ وتعريض بالأمير ، ومن ثم أراد لشعرة معاوية التي آذنت بالإنبتات ألاّ تفعل ، فتعَمدَ في سابع الأبيات إلي نوع من ترضية سيف الدولة بأن اعتبره السحابَ ذا المطر الخَيِّر الخصب والصواعق الجائحة المهلكة ، وتشكّى من أنه المخصوص بصواعق الجفاء والمنع ، وأن الآخرين مخصوصون بديَم الوصال والمنْح ، وتمنّى على سيف الدولة أن يزيلَ عنه سخطَه إلى شانئيه تخفيفا وعدلاً .

حتي إذا التفتنا إلي طرق الأداء في الأبيات رأينا أبا الطيب يستخدم النداء في مخاطبة سيف الدولة ، ثم يردفه بضمير الجمع للغائبين (نفارقهم) وكأن الفراق الوشيك قد وقع بالفعل ، ولعلّ في ضمير الغائبين ما شمل خولة بمضمون البيت المُغْرِقِ في التودُّدِ والأسي ، وتبرز (أنا) الشاعر في البيت ثلاث مرات بصيغة الجمع .. (يعز علينا) ... (أن نفارقهم) ... (وجداننا) ، وكأنه وقد خاطب الحمدانيين جميعا أبي إلا أن يعادلهم بنفسه مجموعا ، ويبرز الجمع بين المتناقضات في عجز البيت إذ يطابق بين (وجداننا) وبين (عدم) . فضلا عن أن العجز كناية عن تفرّدهم بالعظمة والفضل ،

واختصاص الشاعر إياهم بمحبته الصادقة دون سائر الناس ، ولا يزال في البيت الثاني يعبر عن نفسه بضمير المتكلمين في قوله : " ما كان أخْلَقَنا ، ومن أمرنا ، وينطوى عجز البيت علي ما كلف به الشاعر من الجمع بين المتناقضات . وذلك لأن قوله : " لو أن أمركُم مِنْ أمرِنا أمَمُ " مؤداه أن للأمير في أبى الطيب رأيا سينا يناقض رأى أبى الطيب فيه ، وفي البيت الثالث - بيت الغاية القصوى في التودد والتطامن - تصور الاستعارة التصريحية غور الآلام المعنوية التى عاناها المتنبي إذ تغيّر عليه الأمير وأسلم القلب والسمع للشانئين ، والبيت بأكمله كناية مُصوِّرة لتخاضى المحب عما يلقى من هول عاطفته مرضاةً لحبيب يتلذّذُ بما يصيبه ، وقد كان الأمير مستجيبا بالفعل للطاعنين علي أبى الطيب ، وتفصح (الأنا) عن نفسها فى ضمير المتكلمين فى قوله : (حاسدنا) وفي رابع الأبيات أدت الجملة الاعتراضية - لو رعيتم ذاك - دلالة عدم المراعاة ، وهو عتاب أرهص بأشد التهجم وأعنفه في البيت التالى كما فصلنا آنفا ، وتنكير كلمة (معرفة) زادت دلالة تعظيم المتنبي وإجلاله للعلم والثقافة والفكر ، تلك الأواصر التي يراها ذات شأن في تثبيت الود بين العلماء والأدباء ، وترتيب حقوق لأى منهم تجاه الآخرين ، وقد صور ذلك تماما ببليغ التشبيه المؤكّد بإنَّ في قوله : (إنَّ المعارف في أهل النهى ذِمَمُ) ، فتلك الأواصر الثقافية التي لم يَرْعَ الأميرُ حرمتها - فضلا عن تجاهله موجبات الصداقة والود بينه وبين أبى الطيب - إن هى في الحقيقة إلا مواثيق وعهود بين المفكرين وأصحاب العلم والرأى لا معدى لذوي الأصالة منهم عن مراعاتها . والبيت إلي ذلك يجمع التناقض بين ما ينبغى للعلاقات الفكرية بين أربابها من صيانة ، وبين تجافي الأمير عن ذلك .

وفي خامس الأبيات وأعنفها تقول لغة الأداء إن التماس الأمير وخصوم

المتنبي لمعايبه كان ركدهم وفعلهم المتكرر القاصدين إليه بإصرار ، وقد أدت " كم " ذلك في صدر البيت ، وفضلا عن ذلك تؤدي جملة (تطلبون) معنى السَّعْي الحثيث والالتماس الدؤوب ، فليس الذي يطلب شيئا بالذي يطلبه عرضا أو كيفما اتفق ، وقد ذكر أبو الطيب كلمة (عيبا) في معرض القول بأنهم يعنّون أنفسهم – خاصة الأمير – بالتماس عيب .. أى عيب للاتكاء عليه تبريرا للمجافاة والحرمان ، و(الأنا) المتضخمة ظاهرة في صدر البيت محمولة علي ضمير المتكلمين ، وفي الإفادة عن مسعاهم بالعجز تدليل علي كامل فشلهم في هذا المسعى ، وهو يتجاوز بدلالته اللغوية والنفسية التعبير عن هذا الموقف بالإخفاق أو الفشل مثلا ، ففي العجز عن إدراك أمر تصويرٌ لقصور الفاعل لاستحالة مبتغاه عليه استحالة مطلقة ، وفي عجز البيت كناية تصور قبح هذا الصنيع المتحلّل وإدانته بمعايير الدين والأخلاق جميعا . علي أن الدلالة علي تصادم صنيعهم هذا مع القيم الدينية مُعبَّرا عنها بأرفع رموزها قاطبة ، وهولفظ الجلالة ليوحي بما كان يعانيه أبو الطيب من تنكر الأمير له ، ومن رغبته المصرة علي إدانته والإزراء به ، وفي صدر البيت السادس الذي هو بمثابة تعليل لعجزهم التام في مسعاهم ، يَرِدُ التعجبُ مصوِّرا لما يذهب إليه أبو الطيب من نقاء شرفه ، وتطهّره من كل عيب ودنس ، ثم يصور بليغ التشبيه المحل الأسمى الذى أحلّه أبو الطيب شخصه . إنه الثريا وحاشاه وحاشاها أن يوصما بعيب أو نقصان ، ويؤكد ذلك بليغ آخر من التشبيه يصير فيه العيب والنقصان شيبا وشيخوخة مستحيلَيْن ، وهما مستحيلان عليه بمثل استحالة الشيب والشيخوخة علي الثريا ، وينتظم البيت كله في تصوير من تشبيه التمثيل مؤداه استحالة اتصاف أبي الطيب بالمعايب والنواقص بمثل استحالة اتصاف كوكب الثريا بالشيب والهَرَم ، وتبرز (الأنا)

في البيت مرتين : أولاهما في ياء المتكلم إذ يقول : (شرفي) والأخري في ضمير المتكلم سافراً في صدر عجز البيت : (أنا الثريا) ، وما يزال الشاعر جامعا بين المتناقضات ، فيتناقَضُ اجتماع الشيب والهرم إلي الثريا ويستحيل – رفقا لمؤدي البيت – اجتماعُ العيب والنقصان إلي أبي الطيب ، وفي البيت السابع لا يملك سوي التمني الذي يشي بشبه استحالة المضمون ومصور بالاستعارات التصريحية في الغمام وصواعقه والديم انديا ح الشر والخير كليهما من الأمير ، وأدت الصواعقُ هول ماشدّده عليه الأمير من نكير بمثل ما صورت الدّيمُ البلهنية التي أفاء بها علي خصوم الشاعر وكارهيه ، فضلا عن أنه جمع النقيضين لفظا وهما الصواعق والديم ، وقابل بين (عندى صواعقه) و (عنده الدّيم) ، وهو جمع للمتناقضات أبعد مدي . لأنه يُحوّل علي المعاني الكلية لا على دلالات الألفاظ فحسب ، وتبرز (الأنا) فى البيت محمولة على ياء المتكلم في قوله (عندى) كما أنه كني عن خصومه بمقتضي موقعهم من نعمة الأمير ورعايته ، فهم إذن المخصوصون بديمه .

ويبدأ المتنبى سبعة الأبيات الأخيرة من القصيدة بأن يعلن صراحة عن عزمه على الرحيل عن حلب في سفر طويل منذِرا بعقبى رحيله من ندم يملأ نفس الأمير إذ هو مسئول عن هذا الشّتات ، معرجا علي الإلمام ببعضٍ من علل هذا الرحيل ، لقد باتت حلب صفرا من الأصدقاء ، غاصة بالأعداء ، وبات الرزق الذي يساوى فيه الأمير بين أبي الطيب على فحولته وعبقريته ، وبين خصومه من ساقطي الشعراء ، بات وصمة يتعين عليه أن يبرأ منها ، ويستنكر المتنبي من خصومه أدعياءِ الشعر هؤلاء ، أن يقولوه وقد افتقدوا آلته ، وأصفروا من قدراته ، ثم يختم رائعته مؤكدا لأميره أنه إنما صدر في عتابه إياه عن الحب لا عَنْ الكره ، وقد أزلف له العتاب في روائع باقيات من

أرى النَّوَي تقتضيني كلَّ مرحلةٍ ... لا تستقلُّ بها الوخّادةُ الرُّسُمُ
لَئِنْ تركْنَ ضُمَيراً عن مَيامِننا ... لَيَحْدُثَنَّ لمِنْ وَدَّعْتهُم نَدَمُ
إذا ترحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدَرُوا ... أَ لا تفارقَهم ، فالراحلون هُمُ
شرُّ البلادِ مكانٌ لا صديقَ بهِ ... وشرُّ ما يكسِبُ المرءُ ما يصمُ
وشرُّ ما قَنَصَتْهُ راحتي قَنَصٌ ... شُهْبُ البزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ
بأي لفظٍ تقولُ الشِّعْرَ زِعْنفَةٌ ... تجوزُ عندَكَ ، لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ
هذا عتابُكَ إلاّ أنَّهُ مِقةٌ ... قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلاّ أنَّهُ كَلِمُ (٢٠)

إنه إذن الفراق لامحالة ، وإنه لَفِراقٌ إلي مُرتحلٍ جدّ بعيد يشق حتى علي سراع النياق وأضخمها وأشدها ، ويُقسمُ أبو الطيب في صدر البيت الثانى علي أن مغبة رحيله عن حلب – وقد قرر الذهاب إلي مصر – لتكونَنَّ ندما يأكل قلب سيف الدولة ، وإنه إذ يقول ذلك ليقرِّرُ على مسمع من جمع مستمعيه الحاشد أن رحيله أمر خطير ، وليس من نثريات الأحداث التى يتساوي وقوعها وعدمه ، ومن ثم يعمد في البيت التالى إلي تحميل سيف الدولة مسئولية مباشرة وكاملة عن قراره بالرحيل ، فهو المستجيب إلي شانئيه والحاقدين عليه ، بل هو المتحامل عليه بالجفاء والمنع وإصغار الشأن ، وهو الممتنع قصداً عن كف غرْبه عن أبى الطيب ، والزاهد في مرضاته ومداواة جراحه ، إن الأمير للراحلِ ابتداءً عن أبي الطيب بمودته وحبه وكرمه ، وماقرار الشاعر بالرحيل عن الأمير والحمدانيين بجسده لا بمودته إلا رد الفعل الذي ليس له عنه من محيص ، وإن حلب – فى البيت التالى – قد تآمرت كلها علي أبي الطيب ، وتربصت به حتى أقفرت من الأصفياء

والأدباء ، وإن الأمير ليُمعنُ في استفزازه ، والإناخة به من عليائه وتفرّد مكانته بين شعراء البلاط ، عطاء ، وحُظوة حتي ليساويه بهم ، وتلك محنة داهمة لأبي الطيب ويعسر بل يستحيل عليه أن تتساوى قامته الشامخة بقامات أقزام أدعياد لا يتجاوزون سفح كيانه فنيا وإنسانيا ، ولاغرو – بعد ذلك – أن يري الرجل في كسب يأتيه من الأمير وفقا لتلك المقاييس المجحفة وصمة عار لا حيلة له إلا في أن ينفض منها يديه . هذا فضلا عمّا يشوب ذلك العطاء – أيا كان قدره – من سوء معاملة الأمير وتكديره صفو حياته بمجافاته والأخذ بعضد الطاعنين عليه ، والبيت التالي تكشيفٌ لمؤدّي البيت السابق ، مضافا إليه التعريض الشديد بخصومه المتدنين الذين يشاركونه – بغير الحق والعدل – في رزق سيف الدولة وحدبه شركة مساواة ، وهم علي نقيضه موهبة وعروبة وإخلاصا ، ولا يلبث أن يفرد البيت السادسَ للقدْح المباشر في مناوئيه والطاعنين فيه ، ويصادر عليهم تطاولهم بقول الشعر وهم يفتقدون أدوات الإبداع فيه ، خاصة رهافة الإحساس باللغة وامتلاك سليقتها إذ هم من أصول غير عربية ، ولا يلبث أن ينعى علي الأمير – وهو العربي الخالص والشاعر المثقف – ما تورط فيه من تقريب هؤلاء الأدعياء وقبول مايسفسفون به من ساقط الشعر وركيكه ، وكأني بأبي الطيب يكاد يتهم سيف الدولة بأنه إنما يقرّب هؤلاء ويستمع إليهم ويجيزهم نكاية فيه لا تقديرا لهم ، ويعمد أبو الطيب إلي بيت الختام ، فيقسمه قسمة عادلة بين سيف الدولة وبين نفسه ، فيقول للأمير في صدر البيت إن عتابه إياه صادر عن حب ، فالمرء لا يعاتب إلا من يحبه ويبقى عليه ، ولا يفوتنا أن نلحظ كيف أن أبا الطيب يرفع قامته هنا لتساوى قامة الأمير ، فالحب لا يكون الا بين متكافئيْن ، ويفرغ لنفسه وفنه في عجز البيت ليقول : إنه أدى

عتابه مصوغا فى لألاءٍ من جوهر القول ورفيع الكلام ... وهل يمكن لأبي الطيب ذي الموهبة الخصبة والثقافة الرفيعة - بمقاييس الواقع - والعبقرية المتفردة - فى رأى نفسه - إلا أن يصوغ بوح نفسه ، وجدليات فكره بأحرف مجنحة وكلمات وتراكيب وصورٍ باقيات بقاء الدر . متألقاتٍ تألّقَهُ . مكتسبات علي كرّ الأزمان مكتسبه من تصاعد القيمة وجلال الدلالة ؟

حتى إذا يمّمنا أنفسنا شطر لغة الأداء فى الأبيات السبعة ، رأيناه قد صور النوى وشخصها بالاستعارة حتى لَتُري ، وحتى لتفرض عليه تجشم الأسفار الطويلة والمسافات الشاسعة ، وإنه ليتحدثُ عن هجرٍ آتٍ وكأنه قد كان بالفعل ، ويصوّرُ عجز البيت بالاستعارة والكناية هول رحلته حتى لتتقاعس دونها النياق السريعة الضخمة الشديدة ، وتتجسد (الأنا) فى ياء المتكلم إذ يقول : (تقتضيني) وبدل قوله : (كل مرحلة) علي عراقة الرجل واقتداره عبر مراحل حياته السابقة علي تلك المشاق ، وكذلك كان المتنبى بالفعل جَوّاب آفاق لا يني عن دائب السعي وصولا إلي حلمه الكيانى بمجد التسيّد والمال ، ولعله بتلك الخلّة يذكرنا بابن الرومي نقيضه فيها إذ قضى جل حياته ملتصقا ببغداد متقاعسا عن الرحلة إلى ممدوحيه علي الرغم من غاية بؤسه وافتقاره المدقع إلي المال ، ولا يزال الشاعر على نهجه في القصد إلي الإبهار والإدلال بقدرته علي الفن والفكر جميعا بأن يجمع المتناقضات فى حيّز واحد ، فهو قادر على اجتياز القفار الشاسعات ذات الأهوال . لأنه رجلها ثابت القلب . القادر على الجلاد والمشاق . في حين لا يقدر عليها أسرع النوق وأشدها وأكثرها قدرة علي الترحال ، ويكنى في البيت التالى عن قيمته وعظمة شأنه بأن سيف الدولة سيندم بالقطع لرحيله ، وذلك لأن غيره من أدعياء الشعر ومسفسفيه لن يغني عنه في تمجيد بطولة الأمير وكرمه

وعروبته ، وإن أبا الطيب ليؤكد ذلك بالقسم ، واللام والنون في جوابه ، مُنكِّرا كلمة " ندم " في قافية البيت لتعظيم مدلولها والمبالغة فيه ، وتظهر (الأنا) بضمير الجمع في قوله : (ميامننا) وفي البيت الثالث يصوّر بالكناية مسئولية سيف الدولة عن رحيله فهو الآخذ بأسباب هذا الرحيل ، وهو المتقاعس عن إبطالها ، والبيت يضم المتناقضات كذلك ، لأن مؤداه يتماوج بين الرحيل الفعلي وإمكانات منعه المتروكة من قِبَل سيف الدولة ، وما يعنيه ذلك من اختياره رحيل المتنبي . لتكريسه أسبابه ، وكأن الأمير هو الراحل أصلا وابتداء بحدبه ومودته عن الشاعر ، وصياغة الجملة الاسمية (الراحلون هم) بتقديم (الراحلون) وتعريفها قد أفادت قَصْرَ مسئولية رحيل المتنبي علي سيف الدولة لتعلق أسبابه كلها به وحده ، وفي صدر البيت الرابع يكنى عن حلب وعن نفوره البالغ من أهلها محمولين عليها . بانها قد تنكرت له وأقفرت من صديق واحد يخلص له ، ويكني في العجز عن معافاة نفسه لرزقه من الأمير ، وقد خالطه النكد وسوء المعاملة حتى لقد بات مدّ يده لنواله سبة عار ينبغي اتقاؤها ، وقد استخدم أبو الطيب معنى التفضيل المطلق من الشر مرتين في معرض تصوير نفوره من الحلبيين ومدينتهم ومن الأمير وصنيعه ، وفي البيت التالي يستمر في تصوير نفور آخر ينتابه . هو نفوره من ذلك الرزق الهزيل الذي يساويه فيه الأمير بهابطي الشعراء وصغارهم من الأعاجم ، ويستخدم للمرة الثالثةصيغة التفضيل المطلق من الشر ، ويعكس التصوير الاستعاري في صدر البيت روح أبي الطيب الكلف بالنضال واحتمال المشاق سعيا لما يبتغي ، فالرزق هنا قنص ، وأبو الطيب – من ثم – صائد قناص ، وفي عجز البيت تصور الاستعارتان التصريحيتان اعتداد الرجل بشخصه وفنه ، وإزراءه بخصومه في الحياة والفن كليهما ، فهو البازيّ الأشهب برفعته

وعزته ، وهم الرّخم بغدرها وقذارتها وكريه منظرها ومزعج أصواتها ، ولا يزال الشاعر علي ديدنه في الجمع بين المتناقضات في ساحة واحدة ، فيجمع شهب البزاة إلي الرّخم ، وفي صدر البيت السادس يَرِدُ الاستفهام الاستنكاري ليصادر أبو الطيب من خلاله ما ادّعاه صغار شعراء الأعاجم من قدرات في العربية تسوِّغُ لهم قول الشعر بل التصدي له بالتحدي ، وهو القمة الرفيعة فيه ، ويأتي بالاستعارة التصريحية في قوله (زعنفة) مضيفا تنكيرها إلي الحقارة والتفاهة فيها ، ليصور بذلك ازدراءه البالغ لأى من خصومه المتشاعرين ، وينسحب الاستفهام الاستنكاري فى صدر البيت على مضمون العجز ، إذ كيف يروج ذلك الغثاء لدى عربي مثقف هو سيف الدولة ؟ وفي آخر البيت يبرر المتنبي لنكيره هذا الذى شدّده علي خصومه وإسقاطه إياهم من دوحة الشعر ، بأنهم في الحقيقة سقطوا دون أن يدركوا سليقة العرب ورهافة ذائقتهم وقدرتهم الطبيعية علي اللغة ، وكذلك دون أن يدركوا شيئا من لغات أصولهم الأعجمية لتقطّع أواصرهم بها بفعل الزمن ... وهكذا يضرب المتنبى علي كيان هؤلاء المنافسين تماما ، فالناس عصرئذ إما عرب وإما عجم ، ومنافسوه صفر لأنهم ليسوا إلي هؤلاء ولا إلى أولئك ، ومايزال الرجل يورد متناقضاته في حيّز ، فهناك تناقض بين قول الشعر ، وبين كون القائل أحمق جاهلا زعنفة فى دنيا اللغة والفن ، وهناك تناقض بين العرب والعجم ، حتى إذا وصلنا إلي بيت الختام رأينا أبا الطيب يسمى صنيعه في القصيدة : إنه العتاب لا الهجاء ولا القطيعة ، ثم يصله عن طريق بليغ التشبيه المؤكد بدائرة أخص تتساوى فيها هامته مع هامة الأمير إنها دائرة الحب ، فهو يعاتبه حُبًّا لا غضبا أو قطيعة ، وفى هذا

الجمع المحتشد من مناوئي الشاعر ، وعلى رأسهم الأمير ، وفي هذا المناخ المشحون بالشجن والتحدي والاستفزاز ، يأبي أبو الطيب إلا أن تكون آخر كلماته في آخر قصائده إلي الأمير عن نفسه وعن فنه ، فشعره – محمولا علي صورة التشبيه – جوهر مصوغ من كلام لا يقدر عليه سواه ، وأبو الطيب لا يُلقي كلامه أبداً كيفما اتفق ، فتشبيه شعره بالدّر يعطيه ليس نفاسة الدر المطلقة فحسب ، وإنما يعطيه فضلا عن ذلك صموده للزمن وازدياد القدر والتألق علي الأيام كلما دارت دورتها ، هذا هو الشأن في الدّر ، وهذا هو الشأن في روائع شعر فارس الفن والقلق والتجاوز ، جهير الصيت متضخم الذات أبي الطيب المتنبي .

الحواشي والإحالات

(١) – الشيخ يوسف البديعي ، الصبح المنبي عن حيثيّة المتنبي : ٨٧ / ٨٨ – تحقيق مصطفي السقّا ومحمد شتا وعبده زيادة عبده ، ط الثانية – دار المعارف تاريخ الإيداع ١٩٧٧ .

(٢) – شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبد الرحمن البرقوقي : ٤ / ٨١ ، نشر دار الكتاب العربي بيروت – لبنان . (د . ت) .

(٣) – شوقي ضيف (دكتور) ، الفن ومذاهبه في الشعر العربى : ٣١٢ ، دار المعارف بمصر ، ط التاسعة (د . ت)

(٤) – السابق : ٣١٣ ، وكذا الطبعة الأولي – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٢ هـ – ١٩٤٣ م : ١٨٦ .

(٥) – السابق : ٣١٥ – ٣١٦ ط التاسعة .

(٦) – شرح ديوان المتنبي (برقوقي) : ٤ / ٨١ .

(٧) – السابق : الصفحة نفسها .

(٨) – السابق : ٤ / ٨٢ .

(٩) – مقدمة ط الأولي : ١٢٦ .

(١٠) – السابق : ٤ / ٨٢ .

(١١) – شرح ديوان المتنبي : ٤ / ٨٣ .

(١٢) – السابق : ٤ / ٨٤ .

(١٣) – الصبح المنبي : ٧٨ .

(١٤) – السابق : ١٧٠ – ١٧٤ .

(١٥) – شرح ديوان المتنبي : ٤ / ٨٦ .

(١٦) – السابق : ٨١ – ٨٢ من قوله :

قد زرتهُ وسيوفُ الهندِ مغْمَدَةٌ وقد نظرتُ إليه والسيوفُ دَمُ

إلي قوله :

أما تَرى ظَفَراً حلْواً سوي ظَفَرٍ تصافَحَتْ فيه سيوفُ الهندِ واللِّمَمُ

(١٧) – السابق ك ٨٣ – ٨٦ من قوله :

أنا الذي نظَرَ الأعمى إلى أدبي وأسْمَعَتْ كلماتي من بـه صَمَمُ

إلي قوله :

صَحِبْتُ فى الفلواتِ الوحشَ مُنْفَرِداً حتي تعجَّبَ منِّى القُورُ والأكَمُ

(١٨) – محمود محمد شاكر ، المتنبي ، السفر الأول : ٢٣٥ ، مطبعة المدنى (تاريخ مقدمة المؤلف ٦ / ١١ / ١٩٧٧)

(١٩) – شرح ديوان المتنبي : ٤ / ٨٨ .

(٢٠) – السابق : ٤ / ٩٠ .